Revue des
lumières

Spécialisée en sciences humaines; pensée et communauté

جهود المستشرقين الألمان في البحث اللغوي العربي	نرجس بخوش
إسهامات المستشرق الألماني أوغست فيشر في الدراسات اللغوية العربية: [المعجم التاريخي اللغوي نموذجا]	سامية بحري
مخارج الأصوات بين سيبويه والمحدثين: أوجه الاتفاق والاختلاف	رشيد محمد الزهوي صالح عبد الله العولقي
الرواية الشفهية للشعر العربي القديم: إشكالات وأبعاد	الحسن بنيعيش
إشكالية عدة القوافي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي: حل الإشكالية واستدراك على الخليل في العدة	محمد الطحناوي
أهمية القيادة في التطور الإداري والاجتماعي للدولتين الأموية والعباسية	نبيلة ميمي جهيدة شاوش فوان

الأقليات في الدولة العثمانية بين الاضطهاد والتمكين	فديمة يعقوبي
دور المدارس في النهضة العلمية بالمشرق الإسلامي خلال القرن [5-6هـ/11-12م]	مروان بن شوش
النمو الحضري والتحضر في بلدان العالم: مقاربة لنظريات السوسيولوجيا الحضرية	أحمد الطاهري
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (1967 - 1990م]	لبيد حسين الجابري وليد عبدالباري قاسم صالح
الوبا، بين العقوبة والدوا، من منظور الإنسان البدائي خلال عصور ما قبل التاريخ	زينب عبد التواب رياض فميس

Revue spécialisée en sciences humaines, pensée, politique et communauté, publiée par centre Al-Isbaah pour les études civilisationnelles, politiques et stratégiques

دور المدارس في النهضة العلمية بالمشرق الإسلامي خلال القرن(5 –6هـ/11–12م)

The role of schools in the scientific renaissance in the Islamic East during the 5th–6th century AH/11–12AD.

مروان بن شوش

Marwan bin Shoush

مقدمة:

شهدت بلاد المشرق الإسلامي في مستهل القرن الخامس الهجري ظاهرة تأسيس المدارس التعليمية التي عرفت بالنظاميات في عهد الوزير السلجوقي نظام الملك ،كما واصل الأمراء بعد هذا العصر في تأسيس المدارس في مدة كان العالم الإسلامي يعاني من تداعي خطر الغزو الصليبي والتمزق الداخلي ولكن هذا لم يثن من عزيمة المسلمين في الاهتمام بالعلم والعلماء وإنشاء المؤسسات العلمية، والشيء الملاحظ أن هذه المدارس أفضت إلى نشاط علمي ملحوظ، ومن هذا المنطلق تأتي هذه المداخلة لتسلط الضوء على هذا الجانب المشرق من تاريخ الحضارة الإسلامية وذلك بذكر نماذج من هذه المدارس، وإبراز مدى مساهماتها في النهضة العلمية في حواضر ومدن بلاد المشرق الإسلامي.

من المعلوم أن الإسلام حث على طلب العلم لما له من أهمية كبيرة في حياة الفرد والمجتمع في جميع المجلات ولهذا كان المسلمون عبر مختلف العصور مهتمين به وذلك بتشجيع العلماء والطلبة، وإنشاء المؤسسات التعليمية بمختلف أنواعها ومنها المدارس التي ستكون محور مداخلتنا في هذا الملتقى ونستهل حديثنا بضبط مصطلح المدرسة.

من المؤكد أن أول مدرسة في تاريخ الإسلام هي تلك المدرسة التي كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم في مكة؛ حيث ربى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه تربية لم تتوفر في تاريخ البشرية، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم المعلم الأول الذي أرسله الله إلى البشرية ليعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها، ويخرجها من براثن الجهل الذي كان سائدا قبل البعثة النبوية الأول، وكان التعليم يتم في المسجد بحيث كان مسجده صلى الله عليه وسلم جامعة المسلمين الكبرى ومركز الدعوة إلى الله إذ فيه يتعبد الناس، ويبلغ الرسول عن الله، وينزل التشريع منظما للمجتمع الجديد، ويقابل السفراء والوفود، وتخرج الجيوش حاملة لواء الدعوة الإسلامية إلى الأمصار (محجوب، 1980م، الصفحة،111).

At the beginning of the fifth century AH, the countries of the Islamic East witnessed the phenomenon of establishing educational schools, which were known as "Nazimat" during the era of the Seljuk minister Nizam al-Mulk. The princes after this era continued to establish schools at a time when the Islamic world was suffering from the collapse of the danger of the Crusader invasion and internal rupture, but this did not deter The determination of Muslims to pay attention to science and scholars and the establishment of scientific institutions, and the noticeable thing is that these schools led to a remarkable scientific activity, and from this point of view comes this intervention to shed light on this bright side of the history of Islamic

civilization by mentioning examples of these schools, and highlighting the extent of their contributions to the scientific renaissance In the cities and towns of the Islamic East.

It is well known that Islam urged the pursuit of knowledge because of its great importance in the life of the individual and society in all fields. For this reason, Muslims throughout the ages have been interested in it by encouraging scholars and students, and establishing educational institutions of all kinds, including schools, which will be the focus of our intervention in this forum. school term.

It is certain that the first school in the history of Islam was that school that was in Dar al-Arqam ibn Abi al-Arqam in Mecca; Where the Messenger of God, may God's prayers and peace be upon him, raised his companions with an education that was not available in human history. The Messenger, may God's prayers and peace be upon him, was the first teacher whom God sent to humanity to teach it the Book and wisdom, purify it, and bring it out of the clutches of ignorance that prevailed before the first structural mission, and education was completed In the mosque, so that his mosque, may God's prayers and peace be upon him, was the great university of Muslims and the center of the call to God, as in it people worship, inform the Messenger of God, and send down legislation to organize the new society, meet ambassadors and delegations, and armies graduate carrying the banner of the Islamic call to cities

1- مفهوم المدرسة:

قال ابن منظور درس: درَسَ الشيء والرَّسمُ يَدرُس دُرُوسا. ودَرَسَ الأَثَرُ يَدْرُسُ دُروساً ودَرَسَته الريحُ تَدرُسُه دَرْسا أَي محَته؛ وَمِنْ ذَلِكَ دَرَسْتُ الثوبَ أَدرُسُه دَرْسا، فَهُوَ مَدرُوس ودريس والمدراس والمِدْرَسُ: الموضِعُ الَّذِي يُدرَسُ فِيهِ. والمِدرَسُ: الكتابُ. والمِدراسُ: الْبَيْتُ الَّذِي يُدْرَسُ فِيهِ الْقُرْآنُ، (منظور، لسان العرب، 1414 هـ، الصفحات 79-80)، ولفظ المدرسة من الألفاظ المولدة عند العرب إذ أخذت من العبرانية أو الأرمينية مدراس أو مدرس وجمعها مداريس، ثم خففت فأصبحت مدارسة، ولهذا فالمدرسة من منشآت الحضارة الإسلامية الجديدة.

هذا من حيث المدلول اللغوي وأما في الاصطلاح فهي تلك الدور المنظمة التي يتوجه إليها طلبة العلم وتوفر لهم كل المستلزمات وما يحتاجونه لتحصيل العلم، هذا كما يتولى التدريس فيها نخبة من العلماء المتميزين بالصلاح يكون اختيارهم حسب شروط الواقف ويجازون بما تعلموا من صنوف المعرفة. ويمكن القول إن المدرسة بنيان خيري تتميز الدراسة فيها عن الكتاب والمساجد بالتعليم العالي وتكون المدرسة مخصصة للتدريس والتعليم فقط، والمدرسة أسست لنشر نوع خاص من المعرفة تحت إشراف الدولة. (سعدالدين ، 1995، الصفحات 11-12) وقبل التوسع في الموضوع نحاول إبراز أسباب نشأة المدارس في الحضارة الإسلامية:

2- أسباب نشأة المدارس:

أ-الأسباب الدينية: من المعلوم أن التعليم عند المسلمين كان يرتكز أساسا على العلم الديني الذي أشار إليه الكثير منة رجال السلف فطلبه عبادة، كما دخلت في إطاره العلوم اللغوية، واعتبرت من العلوم الواجب تعلمها في الشريعة وتميز المنهج القرآني بأنه يربط العلوم جميعها بالمبادئ العليا الإسلامية في العقائد والأخلاق والاجتماع والاقتصاد والتشريع. (سعد الدين،1995، صفحة 15)

ب-الأسباب السياسية: تحكمت الظروف السياسية التي مرت بها بلاد المشرق الإسلامي في فنجد الفاطميين والسلاجقة والزنكيين والأيوبيين قد قاموا بإنشاء مؤسسات التعليم لنشر الثقافة الإسلامية كما جعلوا التربية وسيلة للرد على الخصم وأدركوا أن القوة والعنف لا تجدي نفعا بل لابد من مواجه الفكرة بالفكرة والحجة القوية، ولهذا كانت المدارس قد خدمت السياسة.

ج-الأسباب الثقافية والعلمية: كان إنشاء المدارس من قبل الأمراء والوزراء الرغبة الشديدة في نشر العلم.

د- الأسباب الشخصية: وهي تكمن أساسا في إمداد الدولة بالعاملين في الجهاز الإداري وهذا لما اتسعت الدولة الإسلامية ونمت صارت في حاجة ماسة إلى إعداد متخرجين لإدارة مؤسساتها لاسيما تلك المناصب المرتبطة بالعلوم الأساسية التي تقدم في المدارس كوظائف الإفتاء والقضاء والخطابة ،وغيرها من الوظائف فكان السلاطين يختارون موظفي حكومتهم من المتخرجين من هذه المدارس من يكون ملتزما بالعقيدة السنية وموالية للدولة (سعد الدين ، 1995، الصفحات 16-17).ومن الشواهد التاريخية ما ذكره الفقيه أبو إسحاق الشيرازي المدرس في نظامية بغداد حيث قال «:خرجت إلى خُرَاسان فما دخلت بلدة ولا قرية إِلَّا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابِي .»(السبكي، 1413هـ،ج.4، صفحة 216) هذا يدل أن الدولة كانت تبذل قصارى جهده لتخريج موظفين موالين لها ويكون لهم توجه مذهبي منسجم مع المجتمع الإسلامي.

3- نشأة المدارس في العالم المشرق الإسلامي ودورها الحياة العلمية:

كان طالب العلم قبل ظهور المدارس يسعى إليه بالسفر والارتحال في طلبه على يد الشيخ الذي يريده فيبذل الجهد والمال في طلب المشهورين أو المرموقين من الشيوخ. وكانت المساجد أماكنا للدرس والتدريس للشيوخ والعلماء يفد إليهم الطلاب من كل صوب وحدب. وفي أواخر القرن الرابع وبداية الخامس الهجري بدأ ظهور المدارس وتنافس الملوك والأمراء في تأسيسها إذاعة لنفوذهم أو خدمة لدينهم ونشرا للنور والمعرفة بين شعوبهم، فكانوا يجمعون العلماء في هذه المدارس وأصبح طالب العلم لا ينتقل إلى العلم فقد انتقل إليه العلم وصار لا يبحث عن شيخه فقد جاء الشيخ إليه. (مرسي، 2005م، صفحة 291)

وقد اطلعنا تاج الدين السبكي في هذا السياق: «... كانت المدرسَة البيهقية بنيسابور قبل أَن يُولد نظام الْملك والمدرسة السعدية بنيسابور أَيضا بناها الأَمِير نصر بن سبكتكين أخو السُّلطان محمُود لما كان واليا بنيسابور ومدرسة ثالِثة بنيسابور بناها أبو سعد إِسماعِيل بن عَليّ بن الْمثنى الإستراباذي الوَاعِظ الصُّوفِي شيخ الخطِيب ومدرسة رابِعَة بنيسابور أَيْضا.» (السبكي، 1413هـ،ج.4، صفحة 314) فعلى ضوء ما ماذكره السبكي يتضح جليا أن نظام الملك لم يكن أول من أنشأ المدارس، بل وجدت قبله ولكن مايمكن قوله أن المدارس التي انشئت في مستهل القرن الخامس الهجري كانت تابعة للدولة ومتميزة بنظمها من هذه المدارس نذكر مايلي.

-المدرسة النظامية ببغداد: تُعد نظامية بغداد من المعاهد الأولى للدراسات العليا في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي، التي امتد وجودها خمسة قرون تقريبا. ولعل إطلاق اسم النظامية على هذه المجموعة من المدارس المؤسسة في عصر السلاجقة ومنها نظامية بغداد إنما كان بعد القرن الخامس للهجرة حينما بدأ المؤرخون في الكتابة عن هذه المدارس للتمييز بينها وبين غيرها من المدارس التي انتشرت يومئذ في معظم الولايات. (محبوبةعبد الهادي محمدرضا، 1999م)

تقع المدرسة النظامية على شاطئ الدجلة في وسط سوق الثلاثاء، وقد وصفها الألوسي بأنها مستطيلة البناء متناسقة الزوايا والأرجاء، فيها محل واسع للدروس وآخر للمذاكرة، وللترويح على النفوس ومصلاها يسع من المصلين الألوف وفيها مواضع لرؤساء العلم وأدوات الطباعين، وكانت تشتمل على طبقتين من البناء وفيها من الحجر والبيوت عدد كثير مرفوعة الجدران، مشيدة الأركان، عقد في جوانبها طاقات مستديرة الشكل تنتهي إلى ذلك البنيان المشيد.

وكان افتتاح نظامية بغداد في يوم السبت 18 ذي القعدة سنة 459هـ/1067م، حيث شهدت بغداد يوم ذاك تكريم العلماء بمناسبة انفتاح النظامية وأقيم حفل حضره كبار رجال الدولة والعلماء والوجهاء وسكان المدينة حتى امتلئ فيناء المدرسة والمحلات المجاورة. (الألوسي، 1446هـ،الصفحة 120-103،(محبوبةعبد الهادي محمدرضا، 1999م، الصفحات 371-372،الأثير، 1417هـ / 1997م،ج.8،ص.212)

وقد تطرق ابن الجوزي (ت.597هـ/1200م) للوقف في المدرسة النظامية والفئات المستحقة له من المنتسبين إلى المدرسة بقوله: «هذه المدرسة والوقف عليها، وفي كتاب شرطها أنها وقف على أصحاب الشافعي أصلا وفرعا، وكذلك شرط في المدرس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها ومتولي الكتب وشرط أن يكون فيها مقرئ يقرأ القرآن، ونحوي يدرس العربية وفرض لكل قسطا من الوقف» (الجوزي، 1992 م، ج.16،صفحة 304). وهذا في الحقيقة كان عملا مغذيا للتعصب المذهبي بحيث كان هناك تفضيل مذهب عن الآخر.

-نظامية نيسابور: نيسابور مدينة آهلة بالسكان عامرة بالمدارس، وهي عاصمة الخلافة العباسية بعد بغداد، اهتم السلاجقة بهذه المدينة، حيث أقام نظام الملك مدرسة للإمام الجويني (ت.478هـ/1085م) على غرار نظامية بغداد. ولم تذكر المصادر التاريخية تاريخ إنشائها، ولكن إذا رجعنا إلى القول المتفق عليه بأن الإمام الجويني بقي فيها مدرسا مدة ثلاثين سنة تقريبا وأنه توفي سنة 478هـ/1085م، فيكون تاريخ افتتاحها ما بين 448هـ -449هـ / 1056م -1057م (محبوبةعبد الهادي محمدرضا، 1999م، صفحة 379؛ الجوزي، 1992 م،ج.16، صفحة 245).

– المدرسة الفاضلية: هي أول مدرسة لمذهبين في سوريا، ذلك أن واقفها وهو القاضي عبد الرحيم الفاضل بن علي البستاني (ت.596هـ/ 1199م)، قد خصصها لتدريس فقهي مالك والشافعي كما جعل فيها درسا للقراءات، وكان التدريس بها سنة 580هـ -1184وموقعها بدرب ملوخيا بالقاهرة. (المقريزي، 1418هـ،ج.4،ص.204)

ومن خلال هذ الرواية التاريخية يتبين أن في المدرسة قاعتين إحداهما لتدريس المذهبين الشافعي والمالكي، على أن يتولى هذا التدريس مدرس واحد اشترط فيه الإلمام بالفقهين معا، والقاعة الأخرى جعلت لتدريس علم القراءات (شاهين،1420هـ/1999م، صفحة 119).

– مدرسة أبي بكر الطرطوشي (ت.520هـ/1126م): تنسب هذه المدرسة إلى مؤسسها محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري المعروف بالطرطوشي (ت.520هـ1126م /)، هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الأندلسي، الطرطوشي نسبة إلى طرطوشة في شرق الأندلس، ولد سنة 451هـ/1059م، وبدأ في تحصيل العلم بسرقسطة ثم رحل إلى بلاد المشرق الإسلامي سنة 1077/470م، فأدى مناسك الحج ثم توجه إلى بغداد ودرس بالمدرسة النظامية وغيرها من الحواضر ،فكان قد عاصر إنشاء المدرسة النظامية ببغداد، فهو من الأوائل الذين تفقهوا وتعلموا بها، ومعنى ذلك أن الطرطوشي قد تأثر بتجربة السلاجقة في المدرسة النظامية وحاول تنفيذها في الإسكندرية، فلما توجه إلى الإسكندرية في حدود 487هـ/1094م كانت فتنة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي والتي انتهت بنقل عدد من علمائها، ونتيجة لذلك صار البلد عاطلا عن العلم، فوجد الظرف مناسبا لبث العلم، وكان يقول : «إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية لما كانت عليه في أيام الشيعة

العبيديين من ترك إقامة الجمعة وغير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم، أقول وجدت قوما ضلالا، فكنت سبب هدايتهم» (فرحون، د.ت.ط، صفحة 276ومابعدها؛ خلكان،ج.4،صفحة،262).

– المدرسة الصلاحية: بناها نور الدين محمود بن زنكي الشهيد ونسبت إلى الملك الناصر صلاح الدين. (النعيمي، 1990م،ج.1، صفحة 250).

–المدرسة النورية: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في سنة 544هـ/1149م. وأوّل من ولي التدريس بها قطب الدين مسعود ابن محمد بن مسعود النيسابوري الطرثيثي مصنف كتاب الهادي في الفقه، (شداد، 1991،ج.1، صفحة 248). وصفها الرحالة ابن جبير (ت614هـ/1217م) قائلا: «...من أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين، رحمه الله،». (جبير،(د.ت.ط)، صفحة 231). وكانت هذه المدرسة مخصصة لتدريس العلوم الشرعية على المذهب الحنفي وقد درس فيها نخبة من العلماء المشهورين منهم بهاء الدين العقاد الذي درس فيها إلى أن توفي سنة 569هـ/1173م، وبرهان الدين مسعود إلى أن توفي في 599هـ/1202م، وجمال الدين محمود بن أحمد الحصري الذي ظل بها إلى توفي في 636هـ/1238م. (شلبي، 1954، الصفحات 113–114)

وإن المتمعن لجهود نورالدين يدرك حقيقة أن خطواته في إنشاء المؤسسات العلمية كانت هادفة، وهذا ما أفصح عنه مجد الدين بن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلا: «نحن ما أردنا بناء المدارس إلا لنشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين...». ثم يصف أبو شامة المقدسي (ت.665هـ/1266م) قائلا: «وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم، وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام وتأسيس قاعدة الدين... من بناء الربط والمدارس والمساجد، حتى إن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله وفي زمانه صارت مقرا للعلماء...» (شامة،ج.1، صفحات.61، 62). وهذا لكون أن الجهود السياسية ليست كافية في استئصال ذلك الخطر الباطني، لذلك اهتدى نور الدين إلى الجانب العلمي كما فعل السلاجقة، وقد تجلى ذلك بوضوح في إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين.

– المدرسة العصرونيّة: كانت داراً فجعلها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي مدرسةً وجعل فيها مساكن للمرتّبين بها من الفقهاء وذلك في سنة 550هـ/1155م واستدعى لها من حلّ بناحية سِنجار الفقيه شرف الدين أبا سعيد التميميّ الحديثيّ، ثمّ الموصليّ الشافعيّ وكان من أعيان فقهاء عصره. وصنّف كتباً كثيرةً في المذهب والخلاف والفرائض، ونظرا لمكانته العلمية بنى له عدة مدارس (شداد، 1991، صفحة 244؛ بدر، 2002). ومن ثمة انتشرت هذه المؤسسات في مختلف حواضر بلاد المشرق فنجد مثلا في مكة مدرسة بن الأرسوفي، وهي من مدارس القرن السادس الهجري. (جنيدب، 2006، صفحة 25)

وبعد ذكرنا لهذه النماذج لنا أن نتساءل كيف كان تأثير هذه المدارس في تنشيط الحياة العلمية؟. في الحقيقة إن هذه المدارس التي أسسها السلاجقة والسلاطين الذين أتوا من بعهدهم قد تخرج منها عدد كبير من العلماء، قُدر لبعضهم أن يكون من بين مشاهير العلماء الذين تخصصوا في فرع من فروع المعرفة، وأسهموا بمؤلفاتهم في النهضة العلمية بالمشرق الإسلامي، ثم عمت لتشمل مختلف أرجاء العالم الإسلامي منهم:

– العماد الأصفهاني (ت.597هـ/1200م):

هو مؤرخ، وأديب ولد في أصبهان وقدم بغداد فتأدب وتفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الزاز مدرس النظامية، وسمع بها الحديث من أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام وغيره .عرف بمصنفاته المتنوعة ، منها :خريدة القصر، والفتح القُسى في الفتح القدسي ،أرخ فيه لفتوحات صلاح الدين الأيوبي ابتداء من حطين وبيت المقدس من1187حتى1193م،والبرق الشامي في أخبار صلاح الدين وفتوحه ديوان رسائل و ديوان شعر و السيل على الذيل ، في تاريخ بغداد جعله ذيلا على ذيل ابن السمعاني، و نصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية، اختصره الفتح بن علي البنداري في جزء سماه زبدة النصرة ونخبة العصرة

.(الزركلي، 2002 م،ج.7، الصفحات 26-27؛خلكان،ج.5، صفحة 184، (شاكر، 1987،ج.2، الصفحات 246-247)

-ابن عساكر الدمشقي(499هـ - 572هـ / 1098م – 1176م): هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي ، عرفت أسرته باهتمامها بالعلم والحديث والفقه الشافعي في دمشق، بدأ يطلب العلم وهو في السادسة وظل يطلبه في حياته كلها بدمشق ثم في بغداد ثم مكة ومدن وغيرها من لحواضر ثم عاد إلى دمشق سنة 533هـ/1138م وقصده طلبة العلم من مصنفاته : تاريخ دمشق جاء في النهاية في ثمانين مجلدا تبلغ حوالي 16 ألف صفة حتى حوالي سنة 595هـ/1198م، وكان منهجه في الكتابة منهج المحدثين في ذكر السند ثم ذكر الخبر، وتاريخ ابن عساكر يعد مصدرا مهما في التاريخ الإسلامي وغيرها من المصنفات. (شاكر، 1987،ج.2، الصفحات 240-241).

كما درس في نظامية بغداد عند درس عند أبي حامد الغزالي أبو الفتح عبد الكريم الشهرستاني مصنف كتاب الملل والنحل، والعيون والأنهار وتفقه عليه أيضا أبو إسحاق الغنوي وأبوطالب الرازي وأبو سعيد النسابوري صاحب المحيط في شرح الوسيط، والإنصاف في مسائل الخلاف وغيره (محبوبةعبد الهادي محمدرضا، 1999م، الصفحات 377-378). كانت تستقبل الأساتذة الزائرين فتعهد إليهم بإلقاء الدروس فقد زار نظامية نيسابور المحدث أبو الفضل محمد بن أحمد (ت.482هـ (محبوبةعبد الهادي ، 1999م، صفحة 381)

كما بلغت المدرسة النظامية بأصفهان شهرة كبيرة بحيث أخذ طلاب العلم يشدون الرحال إليها بعد وفاة أبي إسحاق الشيرازي عميد نظامية بغداد وهذا للتفقه على أستاذه الخجندي فوفد عليها أحمد بن سلام بن مخلد وأحمد بن محمد الأرجاني الذي قضى عنفوان عمره في المدرسة حتى توفي في 544هـ/1149م وله ديوان مطبوع. (محبوبةعبد الهادي محمدرضا، 1999م، الصفحات 383-384).

ومن الذين درسوا في تلك المدارس الحافظ أبو الحسن عبد الغافر النسابوري صاحب كتاب السياق في تاريخ نيسابور، ومجمع الغرائب في غرائب الحديث وأبو القاسم الأنصاري مصنف شرح الإرشاد وكتاب الفقيه، وأبو نصر بن أبي بكر السراج الذي برع في الفقه وصار من المعدين لدرس أستاذه الجويني (محبوبةعبد الهادي ، 1999م، الصفحات 380-381). وكان الإمام الجويني أيضا من المدرسين في تلك المدارس فقد ذكر ابن الجوزي أنه كان يحضر درسه كل يوم نحو ثلاثمائة من الأكابر هذا يدل على أنها كانت تحظى بشهرة. (محبوبةعبد الهادي، 1999م، صفحة 379؛ خلكان،ج.3،الصفحة.168 (الجوزي، 1992 م،ج16،الصفحة،245)

واشتهر من أمراء صلاح الدين العالم الوافد من خارج مصر، الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري(ت.586هـ/1191م) والذي تفقه في نظامية جزيرة ابن عمر، وهي من المدارس التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك. وكان الهكاري إماما لأسد الدين شيركوه، ومن قدماء عساكره، كما أنه ساهم مع بهاء الدين قراقوش (ت.597هـ/ 1200م) حتى تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد، كان رفيقه في الحرب مع الصليبيين (بدر، 2002، صفحة 62)

شارك في النهضة العلمية المصريون الذين درسوا في المدارس النظامية التي أنشأها السلاجقة، ثم عادوا حاملين معهم الكثير من مؤثرات الحضارة السلجوقية، فنجد مثلا عبد السلام بن علي بن منصور الدمياطي المعروف بابن الخراط (ت.609هـ/1212م) الذي تفقه في نظامية بغداد، ثم عاد إلى مصر وعُين في القضاء والتدريس. كما أن أبا إسحاق إبراهيم بن منصور الفقيه المصري (ت.596هـ/1199م) قد أخذ العلم في بغداد، وعاد إلى مصر وعمل بها (السيوطي، 1967 م،ج.1، صفحة 410 ؛العماد،ج.6، صفحة 529؛بدر، 2002، صفحة 66).

ولقد كثرت حركة ارتحال العلماء من البلاد السلجوقية إلى مصر منذ أواخر العصر الفاطمي، وازدادت أثناء عهد أسد الدين شيركوه الذي تولى الوزارة سنة 563هـ/1167م. فسار صلاح الدين على نفس أسلوب شيركوه في استقطاب المشارقة من العلماء والصوفية إلى مصر لكي يساندوه في تثبيت المذهب السني وحكم الأيوبيين لمصر. ولذلك كان ينفق على سائر من يلجأ إلى المساجد وجعل جامع ابن طولون مأوى للغرباء من المغاربة، وأنشأ خانقاه سعيد السعداء برسم الصوفية القادمين من خارج مصر.

وأما المدارس التي أنشأها الأيوبيون فهي وسيلة لجلب العلماء من البلاد الإسلامية، خاصة من الشرق لتحقيق أهداف الدولة الأيوبية. (بدر، 2002، صفحة 59). كما أن صلاح الدين الأيوبي اعتمد في تنظيم دولته على العلماء الوافدين من الشرق الإسلامي (خارج مصر)، فنجد الذي أفتى صلاح الدين بإنهاء الدولة الفاطمية (العبيدية)، الشيخ فجر الدين الخبوشاني (ت.587هـ/1191م) الفارسي الأصل الذي أخذ العلم عن أبي حامد الغزالي وقدم إلى مصر سنة 565هـ/1169م، ليساهم في محاربة المذهب الشيعي وخطب للعباسيين على منابر مصر سنة 567هـ/1171م، كما اعتمد عليه صلاح الدين وأنشأ له المدرسة الشافعية الصلاحية ليدرس فيها سنة 572هـ/1176م (بدر، 2002، صفحة 60؛ شامة.،ج.2 صفحة 447)

كان أول من تولى التدريس بالمدرسة الناصرية أحد العلماء القادمين من الشرق هو أبو العباس أحمد بن المظفر المعروف بابن زين التجار (ت.591هـ -1194م) (المقريزي، 1418،ج.4 هـ، صفحة 201؛بدر، 2002، صفحة 64)، ودرس بها أبو الخير مظفر بن أبي الخير الملقب بالأمير (ت.661هـ -1264م) بشيراز التي وفد منها وتلقى علومه ببغداد وتولى الإعادة بنظامية بغداد، ثم درس بمصر حيث استفاد منه أهلها وأخذوا عنه. (السيوطي، 1967 م،ج.1،صفحة 407).

ومن الجدير بالملاحظة أن مناصب التدريس في المؤسسات العلمية التي أنشأها صلاح الدين لنشر المذهب السني أسندت إلى العلماء الوافدين من خارج مصر ووظيفة التدريس كانت تعد من الوظائف الرسمية التي اهتم بها الأيوبيون لكونها وسيلة لتثبت المذهب السني في مصر فمن الشواهد التاريخية على ذلك نجد أن وظيفة التدريس بمدرسة منازل العز أسندت للعالم شهاب الدين الطوسي (ت.596هـ / 1199م) وكان من علماء نظامية بغداد (بدر، 2002، صفحة 64)

ومن الأسباب التي جعلت طلبة العلم يتوجهون إلى هذه المدارس أنها كانت تشتهر بأساتذتها وما كانت توفره لطلبة العلم من خدمات وما يحتاجونه لتفرغوا للتحصيل العلمي.

أ- تعيين الأساتذة:

كان تعيين المدرسين يعتمد أساسا على معايير علمية ينتقى بموجبها الأستاذ المدرس وفي هذا المقام يذكر عماد الدين الأصفهاني(ت.597هـ/1200م) دقة نظام الملك الطوسي (ت.485هـ/1092م) وطريقته في اختيار المدرسين فيقول: «... من رأى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب إليه ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم، ونشره وتدريسه، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم...» (الأصفهاني.، 1978، صفحة 59). وبناء على أورده الأصفهاني يتبين أن اختيار المدرسين في المدارس النظامية كان يقوم أساسا وفق تقاليد تشبه التنظيمات المعتمد عليها في الجامعات الحديثة، إذ أنه كان يختبر معلومات المدرسين من خلال المناظرات التي يعقدها في مناسبات مختلفة، فهو يلقي عليهم أسئلة، كان قد فكر فيها مسبقا، وإذا لمس فيمن تقدم للتدريس علما وذكاء، وجهه إلى المسلك الذي يريده، ذلك أن الذين لديهم كفاءة في التعليم يعينهم أساتذة في الحال ويؤسس لهم مدرسة، ومكتبة أو يوجههم إلى إقليم آخر (الأصفهاني، 1978، صفحة 356).

ب-المكتبات:

ألحقت هذه المدارس بمكتبات عامرة بنوادر المصنفات والمخطوطات وقد نمت تلك المكتبات لاسيما مكتبة نظامية بغداد، ومكتبة نظامية نيسابور وأصفهان وغيرها، ومن الشواهد التاريخية التي تبين مدى أثرها في النشاط العلمي ما أفادنا به ياقوت الحموي لما زار احدى المكتبات في 613-614م ووصف خزائنها العشر ومنها الخزانة النظامية، فاستفاد من ذخائرها في تصنيف كتابه

معجم البلد. (محبوبةعبد الهادي محمدرضا، 1999م، الصفحات 393-394) هذا ما يبين بأنها كانت ثرية بالكتب والمصنفات مما جعلها وجهة لطلبة العلم.

ج- المصنفات العلمية:

ومن تأثير المدارس في حركة التصنيف فنجد أن أبا إسحاق الشيرازي الذي درس في نظامية بغداد سبعة عشر عاما قد صنف لتلامذته التنبيه والمهذب في الفقه والنكت في مسائل الخلاف واللمع وشرحه والتبصرة في أصول الفقه والنكت في مسائل الخلاف والمعونة في الجدل ،وطبقات الفقهاء وغيرها هذا كما تخرج على يده عدد كبير من الطلاب منهم: أبو على الفارقي (ت.428هـ/1036م)،وأبو القاسم العكبري (ت516هـ/1122م) صاحب الانتصار في مشكل القرآن وأبو العباس الجرجاني (ت.482هـ/1089م) له كتاب الشافي والتحرير وكتاب الأدباء ،وأبو الحسن بن أبي الصقر الواسطي الأديب(ت.492هـ/1098م)،وعبد الله بن إبراهيم الخبري (ت.476هـ/1083م) شرح الحماسة وعدة دواوين وأبو الحسن علي بن سعيد البدري (ت.493هـ/1099م) صاحب مختصر الكتابة في خلافات العلماء .

وصنف الجويني لطلبته عدة مصنفات من أشهرها النهاية في الفقه والبرهان في أصوله والشامل والإرشاد في أصول الدين. (محبوبةعبد الهادي محمدرضا، 1999م، صفحة 373وما بعدها؛ خلكان،ج.3،الصفحة.168 (الجوزي، 1992م،ج16،الصفحة،245)، وأيضا أبو حامد الغزالي(ت.505هـ/1111م) الذي صنف ستة وخمسين مصنفا (محبوبةعبد الهادي، 1999م، صفحة 376؛ الزركلي، 2002،ج.7،صفحة 22)

د- المناظرات العلمية:

كان انتشار المدارس في عصر السلاجقة عاملا مهما في كثرة المناظرات العلمية، ذلك لأن الأمراء والوزراء كانوا يختارون بعض المدرسين الذين اشتهروا بقدرتهم على المناظرة (بدر، 2002، صفحة 135) إذ أن نظام الملك السلجوقي لما أعجب بتفوق الغزالي على مناظريه عهد إليه بالتدريس في النظامية، وأصبحت المناظرات العلمية من المواد المقررة في المدارس النظامية. وعهد نظام الملك بنظامية نيسابور للإمام الجويني للخطابة بنظامية نيسابور والوعظ والمناظرة، وكانت موضوعات المناظرات متعددة في النحو والصرف واللغة، ولكن أكثر ما كان منها يؤدي إلى الفتن هي المناظرات في المسائل الفقهية. (بدر، 2002، صفحة 135؛ خلكان،ج.3، صفحة 168). والظاهر أن من أهم أسباب تشجيع السلاجقة على انتشار المناظرات العلمية هو اتخاذها وسيلة للرد على الباطنية حيث استدعى الإمام الغزالي لمناظر زعيم الشيعة الحسن بن الصباح (بدر، 2002، صفحة 136).

وكان من مظاهر توفيق نظام الملك في مشروعه الحضاري أن أصارت مدارسه معاهدا للبحث العلمي النظري، ومركزا للباحثين الوافدين من مختلف أقطار العالم الإسلامي هذا، كما ظهرت ثمار هذه الجهود في المؤلفات العلمية في مختلف صنوف المعرفة باللغتين الفارسية والعربية. (محبوبةعبد الهادي ، 1999م، صفحة 401) ونشير في الأخير أن هذه المدارس اختصت بتدريس العلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها ولكن ظهرت فيما بعد مدارس اختصت بالعلوم الطبية مثل المدرسة الدخوارية بدمشق. (النعيمي، 1990م،ج.2، صفحة 100)

الخاتمة

من خلال دراستنا لبعض المدارس التي أسست في بلاد المشرق خلال القرن الخامس والسادس الهجريين نستخلص أنها كانت عاملا في توثيق الصلات العلمية بين أقطار العالم الإسلامي، وكثرة الرحلات العلمية وتبادل الخبرات مما أدى إلى ازدهار الحياة العلمية في عدة حواضر. واضطلعت هذه المؤسسات بنشر الثقافة الإسلامية وتحصين المجتمع من الأفكار الوافدة وتخرج منها الكثير

من العلماء الذين كان لهم دور بارز في النشاط العلمي في العالم الإسلامي بمشرقه ومغربه. وبالإضافة إلى ذلك نستخلص أن هذه المؤسسات وفرت كل ما يحتاجه طالب العلم وكان الوقف والتنافس على الخير ابتغاء مرضاة الله عاملا في استمرار عطائها ودورها الحضاري ولهذا شجعت طلبة العلم، واستقطبتهم من مختلف الحواضر وكانت سببا في شهرة بعض العلماء، واستقرارهم ونبوغهم ولهذا يمكن القول إنها أضفت إلى نهضة علمية في فترة كان العالم الإسلامي يعاني من تحديات خارجية وداخلية مما يجعلها تعد من التجارب الرائدة في التاريخ الإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع

-ابن الجوزي جمال الدين. (1992 م). *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*. تحقيق :محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، المترجمون) دار الكتب العلمية، بيروت.

-ابن العماد عبد الحي بن أحمد. *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. دمشق – بيروت: دار ابن كثير.

-ابن خلكان أبو العباس شمس الدين. 1900، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. تحقيق:إحسان عباس دار صادر – بيروت.

-ابن شداد عز الدين. (1991). *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة*. تحقيق: يحي زكرايا عبادة، دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

-ابن فرحون ابراهيم بن علي. (د.ت.ط). *الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب*. بيروت: دار الكتب العلمية،.

-ابن منظور محمد بن مكرم. (1414 ه). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر .

-أبو شامة أبو القاسم شهاب الدين. (1997م)، *عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*، ط.1، بيروت: مؤسسة الرسالة .

-الأصفهاني عماد الدين. (1978). *تاريخ آل سلجوق*. بيروت.

-الألوسي السيد محمود شكري. (1446ه). *تاريخ مساجد بغداد وآثارها*. بغداد: مطبعة دار السلام.

-الدهاس فواز علي بن جنيدب. (2006 م). *المدارس في مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي* (الإصدار ط.1). مصر: دار القاهرة.

-الزركلي خير الدين. (2002م).*الأعلام*. دار العلم للملايين.

-السيوطي. (1967م). *حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة*. تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر.

-القلقشندي أحمد بن علي.(د.ت.ط) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء دار الكتب العلمية، بيروت.

-المقريزي أحمد بن علي.(1418 ه). *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*. بيروت: دار الكتب العلمية.

-النعيمي عبد القادر.(1990م). *الدارس في تاريخ المدارس*. تحقيق:إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية.

-ابن جبير محمد بن أحمد.(د.ت.ط)، *رحلة ابن جبير*. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

-بهجت، منى محمد بدر. (2002). *أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الاسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية* ،ط.1 القاهرة.

- شاهين.سلام أيمن *المدارس*، 1420ه/1999م. المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، (رسالة دكتوراه)، جامعة طنطا

-شاكر مصطفى. (1987). *التريخ العربي والمؤرخون*،. بيروت: دار العلم للملايين.

-شلبي أحمد. (1954). *تاريخ التربية الاسلامية*. دار الكشاف شر والطباعة والتوزيع.

-عز الدين الأثير. (1417هـ / 1997م). *الكامل في التاريخ*. تحقيق:عمر عبد السلام تدمري، بيروت – لبنان: دار الكتاب العربي.

-محبوبةعبد الهادي محمدرضا. (1999م). *نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (408هـ – 485هـ)، كبير الوزراء في الأمة الإسلامية، دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استزاره*. الدار المصرية اللبنانية.

-محمد منير سعد الدين. (1995). *المدارس الاسلامية في العصور الوسطى*. بيروت: المكتبة العصرية بيروت.

-محمد منير مرسي. (2005م). *التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية*. عالم الكتب.